مـــدخل

لكل شيء أثره ... وعلى هـــذا فالكل او لا شيء .
فالكشف عن الحقيقة التاريخية كاملة غير منقوصة يقتضي
له التقصي واقتفاء مـــا تركت من أثر ملحوظ أينما وقع
وبأي شكل ظهر ، مهما صغر او دق .

ميشليه

١٨١٥ - ١٩١٤

وإن شئت فقل القرن التاسع عشر. وإذ ذاك تنطّ أمام نواظرنا هذه العناوين الغرّارة التي يشير اليها مارك بلوك عندما يستعرض أمامنا هذا التشويش او الاضطراب الذي يلازم « تصنيفاتنا الزمنية » . بعد هذا ، هل يقِف راوية ما من أمثال هيرودوتس مثلاً ، عند « سرد ما حدث او جرى » دون ان يرد هـــذه الأحداث الى أطرها التاريخية ومفارقاتها المميزة ؟ فاذا لم يرو ماجريات التاريخ وفقاً للتسلسل الزمني حسب تعاقب الملوك وتوالي السيطرات السياسية او الحربيـــة ، فسيستمر ، في اضعف الايمان ، عاملاً في إقامة الحدود ووضع الصوى بين هـذه العهود التاريخية المعروفة لدينا باسم : التاريخ القديم ، والأجيال الوسطى ، والعصر الحديث والزمن المعاصر . ولكن أي معنى بعد لهذه الأدوار والأطوار ، وأي مدلول لهذه المصطلحات والمسميات ؟ ففي نظر ليتريه ، التاريخ المعاصر « يدون وقائع الزمن الذي عاش فيه الناس وجرت حوادثهم » بينما يمتد العصر الحديث من حقبة الانبعاث الادبي في القرن السادس عشر الى يومنا هـذا . ومع ذلك فقد جرت التقاليد منذ عهد سحيق ، وهي تقاليد وأعراف لم تُنسخ بعد ، على جعل سنة ١٧٨٩ ، حداً فاصلاً لهذه الحقبة . ومثل هذا الاضطراب في المسميات الزمنية يشوب الحقب التاريخية الاخرى . فاذا ما جعلنا من عام ١٧١٥ نهاية القرن السابع عشر ، فمن المعقول ان نجعل من عام ١٨١٥ الحد النهائي للقرن الثامن عشر. ففي التسليم بمثل هذا التقسيم الزمني، لم يعد القرن التاسع عشر ليتفق وحدود الاصطلاح المسيحي للأزمنة التاريخية، كما انه لا تقاطع هنالك ولا حدود في ديمومة التطور وحركة النشوء . فالأمر ، والحالة هذه ، لم يعد ليتعدى الاصطلاح على حقبة هي خير ما يتفق وترابط الحوادث لتماسكها وفقاً للمفهوم الاوروبي للتاريخ .

لا مراء قط انهم توصلوا الى مقررات هامة في هذه المفاوضات التي دارت في مؤتمرات باريس وقيينا وغنّت. ومع ان التعاند لم ينقطع قط بين مفهوم النظام القديم والايديولوجيا الجديدة التي طلعت علينا منذ عام ١٧٨٩ ، فباستطاعة اوروبا التي أعاد اليها نظامها « هذا العالم المتمدين » ، كما جاء على لسان مترنيخ بالحرف الواحد ، ان تلتفس الصعداء ، وأن تنعم بسلام دائم . وقد استشعرت البورجوازية الفوائد الجسام التي سيعود عليها بها الاقتصاد الصناعي المتطور ، الحر ، في تكامله المتصاعد . فليس بعد ما يعيق او يحد من استشراء الحركة التجارية وانبساطها عبر البحار والقارات . وستجد انكلترا بنوع خاص نفسها في وضع لم تعرف خيراً منه لتفرض على الناس ما تنتج من السلع والبضائع .

واندلعت عام ١٩١٤ حرب أكول ، ضروس ، جعلت الحضارة الاوروبية على قاب قوسين وأدنى من الانهيار والهلكة ، في هذا الانقلاب الجذري الذي لف العالم لفاً فكان نذيراً بطلوع عهد جديد على البشرية جمعاء .

فأوروبا ، ولا شك في ذلك ، هي روح العالم وريحانته في هذا العصر . ومع ذلك ، فالسبق الذي سجلته لها في المضمار الحضاري ، مهما بلغ من مداه ورحبه وبُعد مراحله ، لم يكن بمأمن من كل منافسة او مزاحمة . فقد كشفت اميركا الفتية في صحبة موصولة لبروموتيه ، عن سر نهضة عارمة سريعة الخطى ، كما ان بلداناً ودولاً اخرى اخذ يدب في ثناياها رسيس نشاط وتتمطى بين جوانحها وجوارحها هزة طافرة .

فالقرن الثامن عشر الذي كان عصر نهضة فكرية وتقنية وسياسية جعل اوروبا تسير في طليعة الركب الحضاري. فهل كتب لهذه القارة، في حلبة الزمن، ان يكون القرن التاسع عشر، عصرها الجلي وذروة التطور عندها ؟